

هاكم صيدا العادل

في العهد العثماني

بقلم جرجي ابراهيم نصر

كنت أقلب كتاباً قديم العهد . وقع عرضاً بين يدي . فلفت نظري فقرة عابرة ورد فيها ذكر رجل نجمله كل الجهل . على حين أنه أدى على ما رواه الزادون خدمات شتى لإقليم لبنان الجنوبي . وبخاصة لمدينة صيدا . ذلك الرجل هو « عزت الإدلي » .

ولما كنت أعنى جدّ العناية بالتدقيق في المسائل التاريخية . فقد لجأت الى أديب الجزيب الشاعر الكبير الاستاذ محمد كامل شعيب انعامي : مستظلاً لعلّي أجد عنده ما ينفع غلتي . وبنيتي بوعي . فحدثني حفظه الله نقلاً عن شيوخ معمرين في صيدا ، بمحدث هذا الرجل العجيب في تصرفاته . الذي آتاه الحظ ، وهو عربي أصيل : فعرف كيف يحرز ثقة أولياء الأمر من الأتراك ، وعلى رأسهم داحية السياسيين في عصره السلطان عبد الحميد الثاني .

قال محدثي . كان الناس في مدن لبنان ولا سيما في صيدا وعكا ، منذ ثمانين سنة . لا يحرثون على مغادرة بيوتهم ليلاً لما كان يسود تلك المدينتين من ظلام : وما كان يكثر فيها من اللصوص والتتلة . وكانت مباني هاتين المدينتين تتلاصقان ، بحيث كانت شوارعها دهاليز ضيقة ،

تكثر فيها الوحول والهُوام والحشرات . مما يساعد العجور على ارتكاب جرائمهم وهم في مأمن من العقاب .

ولقد كانت صيدا خاصة في القرن التاسع عشر وما قبله من عصر الظلام وانظلم . متأخرة في الحضارة ورتي والتعليم عن سائر المدن اللبنانية ، الى ان قبض الله ذا رجلاً أقال عثرتها . ووضع الحجر الأول في أساس حضارتها وارتقاها . ذلك هو « عزت الإدلي » الذي عهد اليه بتنصيب التائقمية فيها . فأخذ يسهر على نشر الأمن والتعليم وتعميم وسائل الرفاهية من الأمراض . والضرب على أيدي الأشرار . وبسط العدل في ربوعها ، حتى اصحت مثال المدن في رقيتها وتقدمها . وبلغت الأوج الذي نراها عليه اليوم .

وإن ننس فلا ننسى . أن مدينة صيدا كانت العاصمة الحقيقية للبنان في متاجرها ومدارسها . وفي ما كان يوم ميناءها من المراكب الأجنبية . ولم تكن بيروت في ذلك الزمن . معروفة ولا عاصمة للبنان . ولكن التأخر لم يلبث أن دبّت اليها أسبابه . بعد أن اضطر فخر الدين المعني الى سد مينائها بالصخور والرمال . إتقاء لرسو المراكب العثمانية فيها .

وكان عزت الإدلي في أول عمره صاحب معامل للرياش والآثاث في مدينة « مانستر » فاشتهرت معاملته بدقة الصناعة حتى وصلت الى الآساسة . فاشترت منه الحكومة السلطانية . الكثير من الآثاث الفاخر لقرش دورها العمومية . وعجزت عن أن تدفع له ثمن المبيع ، فحلّت خزائنها من المال . فرأى الصدر الأعظم أن يعزبه في تقلد وظيفة ما . في مقابل تنازله عن ديونه . وعرض عليه قائممقامية صيدا . فقبل الرجل والتحق بوظيفته .

ولما كانت السلطنة يومئذ في يد الإدارة الاستبدادية ، ولم يكن للقضاء من شأن إلا في الأمور الشرعية ، وقليل من الأمور المدنية ، فقد أمكن هذا الرجل العادل ، الذي أثرت في أخلاقه وطباعه ، إقامته الطويلة في أرقى مدن الانكليز ، أن يطلق يده في شتى جوانب الإصلاح .

وكان أوّل ما وجّه إليه اهتمامه : نشر الأمن . وقطع دابر الأشرار : ولما لم يكن لديه من مخترعات عصرنا ما يمكنه به إنارة الشوارع ليلاً : فقد فرض على كل رجل أو امرأة . حتى على كل فتى أو فتاة . بلغا سن الرشد . ألا يسيروا في الشوارع ليلاً إلا وهم يحملون مصابيح من الورق الأبيض . في داخل كل منها شمعة . وهكذا أصبحت صيدا تبدر في الليل . سناة الشوارع : فقلّت أعمال النهب والاصوبة . وشمل الأمن ربوع المدينة . ولكنه رأى أن هذا الاجراء لم يكن بكاف . فأمر بتعليق المصابيح على عمد في الشوارع . وهكذا عزز في وقت واحد . انتجارة النبلية . وأنواع السفر بين الناس . فدبّت الحياة في هذه المدينة التي لم يكن يعيش فيها ليلاً إلا اللصوص والرعاغ .

وبعد ان نشر الأمن والطمأنينة والسرى والحياة في عاصمة قضائه . اتجهت عنايته الى طرق المواصلات . وتأمين السائرين فيها من قطاع الطرق : وبعد أن كان « وادي الزينة » و « صحراء الشويفات » مكتماً لاصوص . أصبحا بفضل مخافر الدرك التي أنشأها على أبعاد متساوية . طرقاً آمنة . تسير فيها النساء والتجار والمسافرون ليل نهار . آمين ناعمي الببال .

وكان شديداً في عدله . صارماً في قضائه . يضرب على ايدي الأشرار والمعتدين . ويوقع بهم العقاب الرادع . فطارت شهرته وخشي الخيرون بأسه : وأمن الأخيار والأبرياء جانبه . وأخذت التماثقيات الأخرى تحذر حذوه وتنسج على منواله .

وآلمه ما رأى عليه الشعب من بؤس وضيّق . لما كانت تلك الدولة البائدة : ترهق به كواهل الشعب من « الأعمار » وأموال « الويركو » وبدلات « التجنيد » فرفع عن الأهلين شر تلك الضرائب مدة أربع سنوات . دون ان يبالي بما كان يوجّه إليه من لوم من ذوي الامر في الاستانة : لأنه كان قويّ النصير في تلك العاصمة لما كان يحرص عليه من إشباع نهم الوزراء بالمال والعطاء .

ولربما كان أول من تسربت إليه روح الاشتراكية في بلد الظلم والاقطاع والاستبداد : فاذا شكوا أحد الفلاحين الفقراء . ظلم مالك أرض . أو جتع إقطاعي غني مستبد . استدعى الغني وانتزع منه سندات التملك أو « انطاير » وبيزقها إرباً إرباً . وهو يقول لذلك الغني : إن السلطان هو مالك الأرض . وأنت أنت إلا متصرفاً بالطاير فيها ، واليوم يأمر السلطان بان أنتزع منك هذه السندات . لاسلمنا اني من يستحقها من الناس . ولا سيما الفقراء الذين يستحقونها بعرق جباههم . فأصبح الأغنياء وأصحاب الإقطاعات . يحشون بأمر الفلاح الفقير . ويبتسلون اليه بان يخصيمهم بنبيء من علة الأرض

وما يروى عنه أن أحد الفلاحين شكوا اليه الحاج حسن عيران صاحب الأملاك الواسعة في كترحتى متظلماً من ان اخاج يطالبه بعشرين « بشلكاً » وبلغ عليه بدفعها مئيداً بسجنه وبطرده من أرضه . ورأى ذلك انقلاب رث الثياب . عاري الصدر . حافي القدمين . فأخذته به رافة . وسأله عما يملكه . فقال : ليس لي الا حمار وعجل ثور . أشدما بنير لأفليح بهما الأرض . عاملاً ليل نهار مع هرمي ومرضي . فلا تدر علي الأرض إلا ما أسد به الرمق .

فرثي لحاله وطلب من الحاج حسن عيران أن يقرضه عشرين بشلكاً ففعل : فأخذ الدرهم ودفعها الى الفلاح وقال له : خذ هذه الدرهم واشتر بها ثورين واستعن بأهلك على حرث الأرض مجدداً . وهكذا يمكنك أن تفي دينك في خلال ثلاث سنوات على أقساط متساوية .

ولما احتج الحاج على هذا الحكم : ألقى عليه درساً اقتصادياً قد لا يستطيع لليوم أكبر رجال الاقتصاد أن يلقيه :

قال يا حاج : إن الناس جميعاً يعيشون من تعب الفلاح وجنى يديه . ولو هجر الفلاح أرضه : لأفقرت البلاد . وساءت أحوال العباد . فاذا شجع الملاك فلاحهم وأمدوهم بالبذار واليهائم . أمكنهم أن يضاعفوا غلة الأرض ، فيفيد منهم : لا الملاك فقط : بل جميع طبقات الشعب .

وله مئات من الحسنات أمثال هذه نخص منها بالذكر . انه كان أول من فكّر في تحديد الأسعار وجعلها في متناول الفقراء .

وكان كريماً جواداً . محناً : فمن مآثره الشهيرة أنه كان يصعد صيحة كل أحد الى مزار دير مار الياس . اجتاور لمدينة صيدا . وبقره مزار آخر باسم مار يوحنا المعمدان . فيلبس لباس الرهبان . ويتعبّد لربه ويأسر بأن تدبّح الذبائح بين المزارين . وتوزّع على الفقراء . حتى أنّ كثيرين من الناس كانوا يحملون من اللحوم والخبز قدرًا يكتفيهم مؤونة أسبوع كامل . وكان في أكثر الأيام . يذهب الى شاطئ البحر مصطحباً الكثير من الصيادين فيجمع ما يصطادونه من الأسماك . ويدفع لهم ثمنه . ثم يوزّعه على الفقراء .

ولربما كان أول من حرص على حقوق المواطنين . والاحتفاظ بحقوق الادارة المحلية . فقد حدث أن تدمر بعض قناصل الدول من أمور بطول بنا ذكرها . فصرّفهم غاضباً . وأمرهم بالآ يتدخلوا في أمور الإدارة والأهلين . مهندداً متوعداً .

وحدث ان شكاه واثي بيروت الى أولي الأمر في الامتانة . لاستنثاره بالسلطة دونهم : فأوفدت الحكومة أحمد باشا الصلح حوالي سنة ١٨٨٩ للتحقيق والبحث . وجاء المفتش الى سراي الأدلي في صيدا . فتباطأ التامتقام في مقابلته . ورفض سماع أقواله . وصرفه غاضباً . فشكا هذا أمره الى الوالي . واتفقا على رفع شكواهما الى الامتانة . فجاء الأمر بعزها معاً . وهذا دليل ما كان يتمتع به الأدلي من سلطة ونفوذ في دوائر الامتانة .

وكان الصيداويون لم يألوا بعد لبس البزة انترنجية فخلع عليهم الأدليّ احدى بزاته . وأهداهم كرسياً كبيراً مبطناً باخرير . مما يستعمله انغرييون في بيوتهم . فكان إعجابهم بهما كبيراً . فجعلوهما مقصورين على لبس العريس وجلوسه . وكان لعظم شأنهما عندهم . يحضون بيها بعناية الى عرس آخر .

وقمصاري القول : إنَّ هذا الرجل المحسن العادل المتمدن : نشأ في عصر قبل عصره : وكان أول من حمل الى لبنان الذي كان يثن من نير الاستبداد . مبادئ الاشتراكية الحقيقية بعطفه على الفقراء . وتشجيعه للحرث والنهال : بل كان أول رجل يذكر عنه أنه أقام فسطاس العدل بين الناس : وضرب على يد الظلم والاستبداد . وحاول ان يخلع على صيدا ثوباً من المدينة الغربية : في عصر ساد فيه التثقف في كل ناحية خلقية وأدبية وصناعية وزراعية : فضلاً عن أنه سارى بين الطوائف والأديان . فكان مذهبه ما تأمر به الشرائع السماوية كلها . الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولو أن هذه التعللة الأولى من نور العدل والمعرفة . استضاء بها اللبائيز . ولو أن زملاء عزت الأدلي وخلقناؤه : مشوا على غراره مند التردد الماضي . لكان لبنان قد تعجل خلع النير عن عنقه . وبلغ منذ أمد طويل ذروة التمدن والاستقلال .

وقد ختم الأدلي حياته النافعة بأن سار ماشياً على قدميه الى زيارة بيت المقدس . فتوفاه الله وهدر راجع من زيارته بين الناقورة وصيدا : ونقل جثته بناء على وصيته الى مسقط رأسه « إدلب » حيث اختفى ترابه : ولكن ذكراه ظلَّت بين الناس حيَّة .